سيميائيّة الاستعارة

أ. نادية ويدير
جامعة تيزي– وزو

يشير أمبرتو إيكو (Umberto Eco) إلى أنّ الاستعارة و"بالخصوص عندما يقع درسها في مجال اللّغة، تعطي شعوراً بالفضيحة في جميع الدّراسات اللّسانيّة، لأنّها بالفعل آليّة سيميائيّة تتجلّى في جميع أنظمة العلامات، ولكن على نحو يحيل التّفسير اللّغوي إلى آليّات سيميائيّة، ليست من طبيعة اللّغة المستعملة في الكلام ويكفي أن نفكر في طبيعة صور الحلم، التي غالباً ما تكون استعاريّة"[1].

يؤكّد إيكو من خلال عبارته السّالف ذكرها أنّ الاستعارة – باعتبارها علامة لغويّة – آليّة سيميائيّة تحتل دراستها مجالاً واسعاً في الاشتغال السّيميائي*؛ حيث تنظر السّيميائيّات إلى اللّغة على أنّها مجموعة من العلامات والإشارات، ولعلّ التّعامل مع اللّغة كعلامة كبرى تنطوي تحتها أنظمة أخرى من العلامات، يجعل منها نظام علامي قادر على استعاب مختلف الأنظمة العلاميّة الأخرى والتّعبير عنها تعبيراً تداوليّاً أو (تواصليّاً)، فلا غرابة إذن في أن ينظر إلى اللّغة كاستعارة كبرى في التّفكير السّيميائي الحديث، ذلك لأنّ اللّغة هي النّظام السّيميائي الوحيد القادر على الاستعارة لأنظمة لا تعبّر عن نفسها بطريقة مباشرة، فهي علامات مجردة تومئ بدلالتها، فتنصهر في اللّغة التي تعبّر عنها وتستعير لها[2]، وهذا ما يؤكّده إيكو الذي يرى أنّ اللّغة بطبيعتها وفي الأصل استعاريّة[3]، كما سبق وأن ذكرنا.

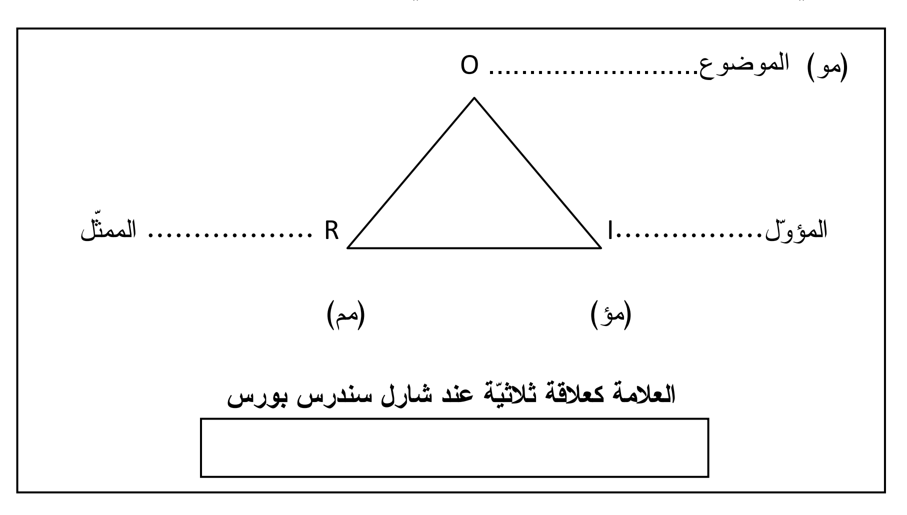
تشكّل الاستعارة ميداناً للعلامة لأنّ اللّغة فيها من درجة ثانية، أي درجة مجازيّة، وفي هذا الصّدد يقول إيكو: "اللّغة لا تشتمل إلا على المجازات فهي تبدي

عكس ما تخفي، فبقدر ما تكون غامضة ومتعددة، بقدر ما تكون غنية بالرّموز والاستعارات"[4]، حيث تحتاج اللّغة المجازيّة أن يُنظر إليها من منظور سيميائي يبحث فيما تخفي هذه اللّغة من دلالات عميقة، حيث لا نكتفي في دراسة الاستعارة بالمعنى، بل نتعداه إلى معنى المعنى أي الدّلالة وذلك تحديداً ما تقوم به السّيميائيّات، وهاهنا يبدو أنّه لا مناص من توضيح الفرق بين المعنى والدّلالة فالمعنى هو معطى مباشر سابق، ملازم للعلامة اللّغويّة، وهو مدلولها الثّابت نسبياً في حين أنّ الدّلالة هي المعاني غير المعطاة بشكل مباشر، أي هي معاني ثانية، أو دلالات مصدرها الثّقافة والتّاريخ، وهي دلالات يتم الحصول عليها من خلال تنشيط ذاكرة الواقعة، والدّفع بها إلى تسليم كل دلالاتها[5]، أي جميع التّأويلات التي يوفّرها المؤوّل لهذه العلامة من مصادر مختلفة. والحديث عن المؤوّل هو لا شك حديث عن الأطراف الثّلاثة المشكّلة للاستعارة باعتبارها علامة سيميائيّة، ويعدّ المؤوّل أحد هذه الأطراف إلى جانب الممثّل والموضوع، ولقد ورد هذا في تعريف العلامة عند شارل سندرس بورس (charles sanders peirce).

خصّص بورس تعريفاً للعلامة يرى فيه أنّ العلامة أو الممثّل هي شيء ينوب بالنّسبة لشخص ما عن شيء معيّن، بموجب علاقة ما أو بوجه من الوجوه، إنّه يتوجه إلى شخص ما، أي يخلق في ذهن هذا الشّخص علامة معادلة أو ربما علامة أكثر تطوراً، وهذه العلامة التي يخلقها يسميها بورس مؤوّلا للعلامة الأولى هذه العلامة تنوب عن موضوعها، إنّها لا تنوب عن هذا الموضوع تحت أية علاقة كانت، ولكن بالرّجوع إلى فكرة أسماها بورس مرتكز الممثّل[6]، وقد ولّد هذا التّعريف، المفهوم العلائقي الثّلاثي للعلامة، وهو الأساس الذي ينظر من خلاله للاستعارة كعلامة ثلاثية الحدود (ممثّل، موضوع، مؤوّل)، إذ لا يعتبر بورس "العلامة وحدة تقصد لذاتها، بل كعلاقة بين علامات جزئية «sous – signe»"[7].

تنشأ الدّلالة في العلامة نتيجة للعلاقة الثّلاثية (la relation triadique) التي تنشأ بين "ثلاثة علامات فرعيّة تنتمي على التّوالي إلى الأبعاد الثّلاثة للممثّل

والموضوع، والمؤوّل الذي يعدّ العنصر الفعّال في هذه العلاقة، إنّه يحيل الممثّل الأوّل على الموضوع الثّاني، ويمكن أن نوضّح هذه العلاقة الثّلاثية في الرّسم التّخطيطي الذي أورده جيرار دولودال كالآتي[8]:



العلامة كعلاقة ثلاثيّة عند شارل سندرس بورس

إذ لا يمكن أن تتحقّق العلامة السّيميائيّة، إلاّ إذا توفّرت على هذه الحدود الثّلاثة بدءاً بالحدّ الأوّل أي الممثّل.

1- الاستعارة والممثّل: يعدّ الممثّل الحد الأوّل للاستعارة باعتبارها علامة سيميائيّة، حيث تبدأ عملية التّحليل السّيميوطيقي للاستعارة، بدءاً بالممثّل الذي يحيل على موضوع الاستعارة المباشر عبر مؤوّلها، و«الممثّل» هو الأداة التي نستعملها في التّمثيل لشيء آخر، يطلق عليه بورس «الموضوع»، وفق ظروف خاصة في الإحالة يوفّرها «المؤوّل»، باعتباره الشّرط الضّروري للحديث عن بناء علامي"[9] وتعقد الصّلة بين ممثّل الاستعارة وموضوعها المباشر عن طريق ما أسماه بورس «التعبير»، وهو كما عرّفه إيكو: "كل الوقائع المعروفة حول هذا الموضوع"[10]، أي الفكرة التي تتكوّن في ذهن المتلقّي، وقد خصّص إيكو في موضع آخر من كتابه القارئ في الحكاية، تعريفاً أكثر تطوّراً للتعبير يقول فيه "التّعبير هو الفكرة التي تولّدها العلامة في ذهن الشّارح، حتى لو لم نعاين وجوداً فعليّاً للشّارح"[11].

2- الاستعارة والموضوع: يشكّل الموضوع الحد الثّاني للاستعارة، وهو عنصر مهم في التركيب العلامي لأنّه يقدّم معرفة حول العلامة، إذ يقوم الممثّل بالإحالة على هذا الموضوع عن طريق التّعبير، ممّا يعقد ربطاً وظيفياً بين العلامة والموضوع الذي تحيل عليه فعليّاً، وبدون هذا الرّبط لن يكون للعلامة أيّة قيمة تقريريّة ولن تكون أبداً محل إثبات له معنى[12].

يمثّل الموضوع معرفة مفترضة تقدّم مجموعة من المعلومات يفترضها المتلقّي حول العلامة، غير أنّ الموضوع ليس بالضّرورة شيئاً أو حدثاً أو وضعيةً، بل يعني به بورس كل ما يتبادر إلى الذّهن[13]. لكن ما يتبادر إلى الذّهن ليس في وسعه أن يوفّر كل المعلومات المحاطة بالعلامة وذلك "نتيجة لما يسميه بورس بقصور العلامة «du signe L'imperfection»"[14]، لذلك يحتاج الموضوع دائماً إلى مؤوّل، "فبما أنّنا مجبرون دائماً، من أجل تحديد علامة، على استحضار علامة أخرى، فإنّ الموضوع لا يشكّل حداً نهائياً لمتوالية إبلاغية ما"[15]، لذلك فهو يحتاج دائماً إلى مؤوّل.

يقدّم الموضوع نوعين من المعرفة: المعرفة المباشرة والمعرفة غير المباشرة والتّمييز بين نوعين من المعرفة يعني التّمييز بين نوعين من الموضوعات، حيث يرى إيكو أنّه" ثمة اختلافاً بين الموضوع الذي علامته هي علامة وبين موضوع العلامة، فالأوّل هو الموضوع الحيوي، ويقصد به حالة من العالم الخارجي، أمّا الثّاني فبنيان سيميائي هو موضوع من العالم الجوّاني المحض"[16]، والفرق بين هذين الموضوعين هو كالآتي :

أ- الموضوع المباشر : الموضوع المباشر (l'objet immédiate) هو المعرفة المباشرة التي تمثّلها الاستعارة، "فكل علامة أو (تمثيل) تعبّر بصفة مباشرة عن موضوع مباشر (يمكن تعريفه على أنّه مضمونها)"[17]، وتتمثل هذه المعرفة المباشرة عند بورس في "معنى الدليل وهو موجود رأساً داخل الدليل ذاته"[18]، لكن هذه المعرفة لا توجد في كل الموضوع، إنّها في جزء منه فقط وهو شقه المباشر

كما أنّ الموضوع المباشر ليس هو كل الموضوع، بل مجرد عنصر منه لا يمكنه أن يحيل بحصر المعنى إلاّ إذا كان الموضوع الكلّي معروفاً مسبقا[19].

ب- الموضوع الدّينامي: تقدّم الاستعارة معرفة غير مباشرة عن طريق موضوعها الدّينامي (objet dynamique) ، والمعرفة غير المباشرة، هي ما يمكن أن يُدرك في الاستعارة بشكل غير مباشر، وذلك لارتباط موضوعها الدّينامي بالسّياق الخارجي، حيث "يرتبط الموضوع الدّينامي بسياق نصل إليه بواسطة تجربة مناسبة، ولذلك فإنّه دائماً يوجد خارج الدّليل"[20]، حيث لا تمثّله العلامة بل تشير إليه فقط، لهذا السبب لا يمكن الوصول إليه دون المرور بالموضوع المباشر فالموضوع الدّينامي هو الموضوع الواقعي الذي بسبب طبيعة الأشياء لا يمكن للعلامة أن تعبّر عنه، وإنّما تشير إليه تاركة للمؤوّل عملية اكتشافه عن طريق التّجربة المجانيّة[21]، التي يعرّفها بورس بأنّها تجربة تعدّ حصيلة سيرورة سيميائيّة سابقة عن الفعل الذي يحقّق الموضوع المباشر[22]. لذلك يمكن أن يكون الموضوع الدّينامي عنصراً داخل ما يؤثّث الكون المحسوس، ويمكن أن يكون أيضاً فكراً وانفعالاً وإيماءةً، كما يمكن أن يكون شعوراً ومعتقداً[23]، حيث يحتاج للوصول إليه إلى النّبش في ذاكرة العلامة[24].

3- الاستعارة والمؤوّل: يصرّح إيكو بأنّ "الخصوصيّة الأساسيّة للعلامة هي قدرتها على استثارة التّأويل"[25]، وهذا ما يحدث في الاستعارة باعتبارها علامة سيميائيّة يقوم حدها الثّالث بحركة نشطة تفتح باب التّأويل على مصراعيه. يعرف هذا الحد الثّالث بالمؤوّل وهو الحد الأكثر ديناميّة داخل البناء الثّلاثي للعلامة في تصوّر بورس، و"المؤوّل ليس هو من يؤوّل العلامة، إنّه علامة تحيل ممثّلاً على موضوعه"[26]، أي يقوم بدور الوساطة بين ممثّل العلامة وموضوعها، إذ يعبّر عن علامة أولى تتولد عنها علامة ثانيّة، وعن الثّانيّة علامة ثالثة، وعن الثّالثة علامة رابعة، إذ تشكّل هذه الحركة التّوليديّة للعلامات ما يُعرف عند بورس «السّيميوزيس»، لكن هذا لا يعني أنّ المؤوّل هو التّأويل، إنّما هو نقطة البدايّة التي

يتشكّل فيها المعنى، حيث إنّه يرتبط بالتّأويل ويعدّ منطلقاً له؛ فالمؤوّل يقتضي وضعاً لا يتطلّب سياقاً خاصاً، ولا يتطلّب شخصاً يقوم بالتّأويل، في حين يمكن اعتبار التّأويل محاولة لإمساك خيوط الدّلالة والدفع بها إلى نقطة نهائيّة تعدّ خاتمة لمسار تأويلي[27]، وينقسم المؤوّل إلى ثلاثة أقسام وهي كالآتي:

أ-المؤوّل المباشر: يرتبط المؤوّل المباشر (interprétant immédiate) للاستعارة بموضوعها المباشر "ويكتفي بتقديم المعلومات الأوّليّة الخاصة بموضوع ما (معنى، الواقعة أو العلامة)"[28] كما يدركها المتلقّي، دون الاعتماد على شيء آخر، وهذا المفهوم لا يقدّم معرفة بل يكتفي بإدخال الممثّل في حركة ديناميّة، تمثل بداية اشتغال السّيميوزيس، ورغم أنّ هذا المؤوّل يختلف عن غيره من المؤوّلات "التي هي في الواقع أشكال فكريّة وتفكيريّة لتفاعل قدرات الإدراك المختلفة مع هذا المؤوّل المباشر"[29]، إلاّ أنّه الأكثر مسؤوليّة عن توجيه وتوجّه السّيرورة الإدراكيّة التي تبدأ مع المؤوّل المباشر للاستعارة ويتّضح مسارها أكثر مع مؤوّلها الدّينامي.

ب-المؤوّل الدّينامي: يقع المؤوّل الدّينامي للاستعارة (interprétant dynamique) في المرتبة الثّانيّة بعد مؤوّلها المباشر ويختلف عنه، إذ يتميّز الموضوع الدّينامي في عمومه بحركة تجديديّة مستمرّة، تخرج العلامة من دائرة التّحيين البسيط إلى التّأويل. فهذا المؤوّل لا يكتفي بما تقدّمه العلامة في مظهرها المباشر بل يمتاح عناصر تأويله من المحيط المباشر وغير المباشر للعلامة[30] وينقسم المؤوّل الدّينامي من حيث العلاقة التي يربط من خلالها بين الممثّل والموضوع حسب نوعيّة هذا الموضوع، فإذا كان موضوع الاستعارة مباشراً تكون المعطيات الذي يقدمها مؤوّلها الدّينامي من الدّرجة الأولى أي (مؤول دينامي1) وإذا كان موضوع الاستعارة ديناميّا، فإنّ المعلومات التي يوفّرها هذا المؤوّل تكون من الدّرجة الثّانيّة (مؤول دينامي2).

ب-1-المؤوّل الدّينامي1 : يُعتبر المؤوّل الدّينامي1 قراءة في المعطيات التي تودّ العلامة أن تقدمها حول موضوعها المباشر"دون البحث في السّياق الخارجي

الذي يحيط بهذا الموضوع، وعليه لا يمنح المؤوّل الدّينامي سوى الوقائع التي لها علاقة بالعلامة نفسها، أي أنّه لا يوفّر إلاّ المعارف، التي يمكن أن تكشف ما تريد العلامة قوله عن موضوعها المباشر"[31] داخل سياق العلامة نفسه.

ب-2- المؤوّل الدّينامي2 : يتحقق المؤوّل الدّينامي2 عندما يرتبط المؤوّل الدّينامي بالموضوع الدّينامي، و"في هذه الحالة يستقي المؤوّل الدّينامي معلوماته من سياق الموضوع، أيا كان بعده أي من مجموع المعارف والمعلومات المتّصلة بالموضوع"[32]، وإذا كان المؤوّل الدّينامي1 يرتبط بالموضوع المباشر، ولا يتعدى الكم المعلوماتي الذي توفره العلامة بخصوص هذا الموضوع، فإنّ المؤوّل الدّينامي2 يشكّل قراءة في سياق خارجي مباشر (خارجي أو سابق) عن معرفة الشّخص الذي يؤوّل، المؤوّل الدّينامي2 هو إذن قراءة في السّياق الاجتماعي (الخارجي) أو التّاريخي (السّابق) أو فيهما معاً، لوجود العلاقة بين العلامة وموضوعها الخارجي[33]، وتكمن أهمية هذا المؤوّل في كونه مسؤولاً عن تطوير المؤوّل الدّينامي الأوّل والمؤوّل النّهائي الأوّل.

ت- المؤوّل النّهائي: يتضمن المؤوّل النّهائي (interprétant final) : المؤوّل المباشر والمؤوّل الدّينامي، وهو كما يعرّفه بورس "الوقع الذي تولّده العلامة في الذّهن بعد تطوّر كاف للفكر"[34]، يعمل هذا المؤوّل على توقيف الفائض الدّلالي الذي يولّده المؤوّل الدّينامي، إذ يرى بورس أنّ هذه القوة الهائلة التي يطلق عنانها المؤوّل الدّينامي، يجب أن تتوقف في لحظة ما لكي تستقرّ الذات المؤوّلة على دلالة ما، إنّ هذه الوظيفة التّحجيميّة يتكفّل بها مؤوّل ثالث يطلق عليه بورس: المؤوّل المنطقي[35]، وتقوم هذه الوظيفة التّحجيميّة بتثبيط الحركة التّدليليّة «السّيميوزيس» بواسطة قوانين محدّدة تعرف عنده بالعادة «habitude»، التي "تجمّد مؤقتاً الإحالة اللامتناهيّة من علامة إلى علامة أخرى لكي يتسنّى للمتكلمين الاتفاق سريعاً على واقع سياقي إبلاغي معيّن، إنّ العادة تشل السّيرورة السّيميائيّة"[36] وتبدأ في التّشكّل على مستوى المؤوّل النّهائي1.

ت-1- المؤوّل النّهائي1 : يرتبط المؤوّل النّهائي1 بالمؤوّل الدّينامي1 ويتصف بأنّه عادة عامة لتأويل الأدلة، حيث تتولّد هذه العادة نتيجة تكرار شخص ما لفعل صادر عنه في زمان ومكان معيّن، حيث يصبح هذا التّكرار مع الوقت قاعدة عامة تخضع لها الأفعال المشابهة للفعل الأوّل، وهي «العادة» جماعية أكثر ممّا هي فردية لأنّها تكتسب عن طريق التّجربة الجماعية[37]، إذ يرى بورس أنّ العادة هي التّعريف الحسي، إنّها المؤوّل المنطقي النّهائي الأصيل، والحاصل أنّ أكثر الحسابات الخاصة بمفهوم ما، القابل للبث من خلال كلمات، يمكن في وصف العادة الخاصة التي يقوم هذا المفهوم بإنتاجها[38]، وإنتاج هذه العادة من طرف المؤوّل النّهائي يجعل منه مؤوّلا لا يتأسّس على معرفة بل على الاعتقاد فقط.

ت-2- المؤوّل النّهائي2 : يرتبط المؤوّل النّهائي2 بالمؤوّل الدّينامي2، ويمثل عادة متخصّصة في إدخال التّأويل في مجال متخصص يهتم بقطاع معرفي يخضع للمراقبة العلميّة، حيث "يرى بورس أنّ المؤوّل النّهائي في هذه الحالة يعيّن طريقة في الكشف عن حكم عام من خلال حالة خاصة. وتلك عادة الخبير الفني الذي يقوم برد حالة مجهولة إلى فنان بعينه، أو إلى مرحلة تاريخيّة بعينها، أو إلى مدرسة فنية بعينها أيضاً؛ وهي أيضاً عادة عالِم الحفريات الذي يقوم بتحديد تاريخ حجر ما استناداً إلى المعرفة التي يملكها عن تعدّد العصور الجيولوجيّة مثلاً"[39]، أي الوصول إلى قاعدة عامة من خلال حالة خاصة.

ت-3- المؤوّل النّهائي 3 : يختلف المؤوّل النّهائي3 عن سابقيه (المؤوّل النّهائي1 والمؤوّل النّهائي2) في كونه لا يرتبط بمؤوّل دينامي لأنّه "خارج السّياق فهو لا يقتضي تجربة معينة من أجل أن يوجد"[40]، وبذلك يمثّل الحدود القصوى التي يمكن أن يصل إليها الفكر الإنساني في تأوّيل ظاهرة معينة، حيث يضم هذا المؤوّل القوانين الخاصة بكل الأدلة أو الظواهر، التي استطاع الفكر أن يصل - وإن مرحلياً - إلى تحديدها بشكل كاف وغير متناقض. ولذلك، فهو يشكّل خلفيّة

معرفيّة مجرّدة، للبث في القضايا أو الأدلّة الوجوديّة المناسبة له، بفضل تحيين نسخته التي هي المؤوّل النّهائي2 [41]، وبفضل المؤوّل النّهائي3 ينتهي نشاط الحركة التّدليليّة تطبيقياً، وإن كانت من النّاحية النّظريّة تبدو غير متناهيّة.

2-4- الاستعارة والسّيميوزيس: يعرّف بورس السّيميوزيس بأنّها حركة أو سيرورة تفترض تشارك ثلاثة عناصر هي: الممثّل، الموضوع، المؤوّل، إذ لا يمكن للحركة المتداخلة بين هده العناصر الثّلاثة بأي شكل من الأشكال، أن تختصر في علاقات زوجية[42]؛ يعود أصل هذا التّعريف إلى مفهوم العلامة وبنائها الثّلاثي عند بورس، وقد تطرّقنا فيما سبق إلى العلاقة الثّلاثيّة التي تجمع بين الممثّل والموضوع والمؤوّل في العلامة السّيميائيّة، إذ يعتبر بورس السّيميوزيس "الفعل أو الأثر الذي هو تشارك"[43] هذه الأطراف الثّلاثة، حيث يحيل الممثّل على موضوع عبر مؤوّل، وهذا معناه النّظر إلى الدّلالة باعتبارها سيرورة في الوجود وفي الاشتغال، وليس معطى جاهزاً يوجد خارج الفعل الإنساني.

تبدأ السّيميوزيس في الاشتغال مع المؤوّل الدّينامي الذي "يحيلنا على حركية التّأويل، التي تعدّ أصل السّيميوزيس وطبيعتها الفعلية"[44]، وتستمر هذه الحركية مع المؤوّل النّهائي بأشكاله المختلفة، حيث يعيد كل مؤوّل قراءة الموضوع المباشر أو محتوى الدّليل ويوسّع في هذه القراءة انطلاقا من المعلومات الجديدة التي يكتسبها وهذا "الانتقال من مؤوّل إلى آخر يكسب العلامة تحديدات أكثر اتساعا، سواء أكان ذلك على مستوى التّقرير أو على مستوى الإيحاء"[45]، ويجعلها تدور في حركة تأويليّة غير متناهية، لكن الانتقال من مؤوّل إلى آخر يجعل التّأويل يقترب شيئا فشيئا من المؤوّل المنطقي النّهائي الذي تحكمه العادة، التي تحدّد السّياق الخاص لاشتغال المؤوّلات وإدراجها ضمن منطق خاص للتّدليل، فإذا كانت حركة التّأويلات غير نهائية من النّاحية النّظريّة كما ورد عند بورس، فإنّها من ناحية الممارسة تخضع للعادة التي تشلّ هذه السّيرورة السّيميائيّة على مستوى المؤوّل

النّهائي3، أي أنّها محكومة بحد ضروري منطقي يقيّد عمل الموسوعة وهو عالم الخطاب الذي يفرض بشكل ما إرغاما ته على مسار التّأويل[46].

وبما أنّ الاستعارة تتميّز بنفس الخاصية التي تتميّز بها العلامة السّيميائيّة بصفة عامة، أي خاصية التّحوّل على مستوى المدلول، فإنّها ستدخل في سيرورة سيميائيّة لا متناهيّة، كون "الاستعارة تعدّ ميداناً للعلامة بقدرتها على التّحوّل على مستوى المدلول، لكي يصبح بدوره علامة من نوع آخر تشير إلى مدلول آخر فيما يعرف بالتّحوّل الدّلالي"[47] أو السّيميوزيس.

5- الاستعارة والأيقونة: يدرج بورس الاستعارة ضمن العلامات الأيقونية والأيقونة (L'icône) عنده تنشأ نتيجة ارتباط العلامة بالموضوع في المرتبة الأولانية من مراتب الوجود[**]، حيث تعدّ الأيقونة "علامة فرعية أولى لبعد الموضوع، وهي تشبه الموضوع الذي تمثّله"[49] وتحيل عليه انطلاقاً من تشابه خصائصها مع خصائص هذا الموضوع.

تملك الأيقونة طابعاً تمثيلياً أو تصويرياً "يجعلها دالة حتى وإن لم يوجد موضوعها"[50]، لذلك "يعتبر الأيقون ممثّل «représentament» وخاصية التّمثيليّة هي أولانية الممثّل باعتباره أولا، أي خاصية كشيء تجعله مؤهلا لأن يكون ممثلا وتبعا لذلك، فأي شيء يمكن أن يصلح بديلا لأي شيء آخر يشبهه"[51]، أي بإمكانه أن يقوم مقامه، والأيقونة ليست علامة شبيهة بالموضوع الذي تعنيه لأنّها تعيد إنتاجه، إنّها كذلك، لأنّها قائمة على صيغ خاصة لإسقاط انطباعات إدراكية: «بروز، استعمال لجزء من الموضوع، نقل» من خلال التذكّر بتجربة «لمسية وسمعية»، أو من خلال لعبة سيرورة حسية مركّبة تفرض النّظر إليها باعتبارها شبيهة بتلك التي أحس بها في حضور الموضوع. وفي هذه الحالة، فإنّ مقولات التّشابه والتّماثل والتّناسب ليست تفسيرا لخصوصية العلامات الأيقونية، بل تشكّل مرادفات للأيقونة، وهذه الأيقونات لا يمكن تمييزها إلاّ من خلال تحليل مختلف الصّيغ المنتجة للعلامات[52].

وبما أنّ الأيقونة ترتبط بالتمثيل فإنّها تتجلى في العديد من الأشكال التصويرية إذ "يميّز بورس في قسم الأيقونات بين الصوّر التي تشبه الموضوع من بعض الجوانب، وبين الرّسوم البيانية التي تعيد إنتاج بعض العلاقات بين أجزاء الموضوع، وبين الاستعارات التي لا ندرك داخلها سوى تواز عام"[53]، فالصوّر الفوتوغرافية هي علامة أيقونية تمثّل شخص ما (صاحب الصّورة) وتنوب عنه في غيابة***، وإطلاق اسم أيقونة على صورة فوتوغرافية لا يراه إيكو سوى استعارة لذلك يقول: "إنّ الأيقونة هي بكل دقة صورة ذهنية متولّدة عن هذه الصّورة الفوتوغرافية"[54]، وعليه فهي مثل الاستعارة موجودة على مستوى الوعي، ونفس الشيء بالنّسبة للرّسم البياني فهو أيقونة لأنّه يمثّل الشّيء المرسوم وينوب عنه في غيابه**** "فالرسوم البيانية، شأنها شأن الاستعارات تؤسس لقضية أ /ب=س/"[55]. ويمكن أن نعتبر الاستعارة أيقونة في حدود أنّها تفرض تشابهاً بين طرفيها بمعنى أنّها علامة تحيل على شيء (موضوع) تشبهه.

إنّ الاستعارات التي تقبل الانطواء تحت قسم الأيقونات، هي الاستعارات التي لا تجد مؤوّلاً موسوعياً يحول دون انفتاحها على عدة موضوعات دينامية، أي تلك التي تماثل اللّوحة الفنية التي وإن كنا نرى نوعياتها «خطوط، ألوان أشكال»، ولا نجد في أذهاننا مؤوّلاً نهائيّاً لها نستطيع – مع ذلك – أن نحدس بموضوعها عن طريق اختلاقنا لمؤوّل خارجي يقوم بربط الممثّل بهذا الموضوع، الذي قد يكون صادقا أو كاذبا. إلاّ أنّ هناك بعض الاستعارات التي يصعب علينا أن نضعها في حافة الأيقونة لأنّ المتلقّي يستطيع أن يربطها بموضوعها الدّينامي، وتنتمي هذه الاستعارات إلى نوع الاستعارات المستهلكة أو الميتة، التي تحت مفعول التّكرار والزّمن، أصبحت رغم انزياحها عن مؤوّلات أدلتها الجزئيّة، ممتلكة في كلياتها لمؤوّل موسوعي مباشر[56].

6- الاستعارة والرّمز: يعقد بول ريكور صلة بين الاستعارة والرّمز نظرا لأهمّية نظريّة الاستعارة في تجاوز الصّعوبة التي تتميز بها الرّموز؛ والرّموز هي عبارة عن علامات تقترن بموضوعها في المرتبة الثّالثانية من مراتب الوجود حيث يعرّف بورس الرمز بأنّه علامة تحيل على الموضوع الذي تعيّنه بموجب تلازمات أفكار عامة تحدد مؤوّل الرّمز بالإحالة على هذا الموضوع، إنّه هو ذاته نمط عام أو قانون أي علامة قانون (Legisine)[57]، واشتغال العلامة كرمز أو كقانون يتم عبر عرف، "فالرّمز علامة اعتباطية، تستند في ارتباطها مع موضوعها إلى عرف، وأبرز مثال على ذلك هو العلامة اللّسانية"[58]، هذا ما يجعل الرمز يتصف بالعمومية التي تجعل من كل كلمة وكل علامة اتفاقية رمزاً.

يتميّز الرّمز ببنية مزدوجة تتشكّل في جانب دلالي وآخر لا دلالي، ويصطدم بمعضلتين تجعلان من الدّنو المباشر من بنية هذا المعنى المزدوج أمرا صعبا تتمثل المعضلة الأولى – حسب ريكور– في أنّ الرّموز تنتمي إلى حقول بحث متعدّدة جداً ومتشعبّة، أما الثّانية فهي في كون الرّموز تجمع بين بعدين، بل يمكن القول بين عالمين للخطاب، أحدهما لغوي والآخر من مرتبة غير لغوية[59]، هذه الصعوبة الخارجية يوضحها ريكور في ضوء نظرية الاستعارة عبر ثلاثة خطوات هي كالآتي[60] :

– تحديد النّواة الدّلالية التي يتسم بها كل رمز، مهما بلغت الفروق بينهما، على أساس بنية المعنى القائم في الأقوال الاستعارية.

– يتيح لنا العمل الاستعاري للّغة أن نعزل الطبقة اللا–لغوية من الرّموز، وأن نفرز مبدأ انتشارها من خلال منهج المقارنة.

– يمثّل الفهم الجديد للرّموز مبحث تطورات لاحقة في نظرية الاستعارة، قد تبقى من دونه خفية غير منظورة، حيث يعمل هذا الفهم الجديد للرّموز على اكمال نظرية الاستعارة وخلق خطوات وسطى تسمح بردم الهوة بين الاستعارة والرّموز.

من هنا يرى ريكو أنّ الاستعارة ترتبط بالرّمز في جانبه الدّلالي، لذلك تعدّ العنصر الكاشف المناسب لإضاءة هذا الجانب الذي له مساس باللّغة، حيث تقدم لنا العلاقة بين المعنى الحرفي والمعنى المجازي في منطوق استعاري دليلا مناسبا يتيح لنا أن نحدّد على نحو صحيح السّمات الدّلالية للرّمز، وهذه السّمات هي التي تربط كل رمز باللّغة، وعليه تضمن وحدة الرّموز، ولكي تؤدّي الاستعارة وظيفتها في الكشف عن الشّق الدّلالي للرّمز، يؤكّد ريكو على ضرورة دراستها وفق النّظرية التّفاعلية لا الاستبدالية، حيث يعمل التوتر القائم في الاستعارة على إيجاد كل الدّلالات الممكنة عن طريق التّفاعل، ممّا يُؤدي إلى اتساع المعنى في الاستعارة، وهذا ما يحدث في الرّمز، إذ يعمل بمعناه العام بصفته فائض دلالة ودراسة الاستعارة وفق النّظرية التّفاعلية، يبّين كذلك عمل الاستعارات كسلسلة أو كشبكة متلاحمة تستدعي فيها كل استعارات أخرى وتؤثّر فيها عن طريق التّفاعل، ممّا يضمن لها الحيوية والاستمرارية، حيث تبقى الاستعارة حية بالحفاظ على قدرتها في استحداث الشّبكة الدّلالية وتوليد معاني جديدة تمنعها من الاضمحلال[61].

أمّا الاستعارة حين تتناولها الجماعة اللّغوية وتقرّبها، تختلط بامتداد لا حصر له من الكلمات المتعددة المعاني. في البداية، تبتذل الكلمة، ثم تتحوّل إلى استعارة ميتة. وفي المقابل، لأنّ الرّموز تمدّ جذورها في أصقاع الحياة والشعور والعالم ولأنّ لها ثباتاً استثنائياً، فإنّها تفضي بنا إلى التّفكير بأنّ الرّمز لا يموت، بل يتحوّل فقط. من هنا، إذا تشبثنا بمعيار الاستعارة، فلا بدّ أن تكون الرّموز استعارات ميتة[62].

يؤّكد ريكو في هذا المقام علاقة الاستعارة بالرّمز وهي علاقة تداخل تبيّن الجانب الرّمزي في الاستعارة والجانب الاستعاري في الرّمز، لذلك يخلص إلى وجوب تقبّل قضيتين متعاكسين حول العلاقة بين الاستعارات والرّموز، فمن جانب نجد الاستعارة أكثر اتساعا من الرمز لأنّها تزوّد اللّغة بعلم دلالة ضمني للرموز

وما يبقى مختلطا في الرمز وهو دمج شيء بآخر، ودمجنا بالأشياء، والتّجاوب اللانهائي بين العناصر يتم توضيحية في توتر المنطوق الاستعاري، ومن جانب آخر نجد الرمز أكثر اتساعا من الاستعارة فهي ليست سوى إجراء لغوي؛ أي شكل غريب من أشكال الإسناد، يختزن في داخله قوة رمزية. ويظلّ الرّمز ظاهرة ذات بعدين، حيث يشير وجهه الدّلالي إلى وجهه اللا- دلالي، وهو مقيّد بطريقة لا تتقيّد بها الاستعارة، فللرّموز جذور تدخلنا إلى تجارب غامضة. أمّا الاستعارات، فليست سوى سطوح لغوية للرموز[63]، وارتباط الاستعارة بالرّمز بهذه الطّريقة يعني ارتباط الاستعارة بالبيئة الثّقافية التي أنتجت هذا الرّمز، وهذا ما يسمح برؤية الاستعارة كعلامة ثقافيّة، يرتبط تأويلها بالموسوعة الثّقافية للقرّاء.

الهوامش:

1- أمبرتو إيكو، السّيميائيّة وفلسفة اللّغة، ترجمة: أحمد الصمعي، المنظمة العربيّة للترجمة، ط1 بيروت 2005، ص.236.

*- يُعنى الاشتغال السيميائي بدراسة كل أنواع العلامات السّيميائيّة بشقيّها اللّغوي وغير اللّغوي والتي تتوفّر على معنى وتحقّق شرط التّواصل.

2- يُنظر: حسين خالفي، نسقية اللّغة ولا محدودية الدّلالة، مقالة في مجلة الخطاب (دورية أكادمية محكمة تعنى بالدرسات والبحوث العلمية في اللّغة والأدب)، ع2، منشورات مخبر تحليل الخطاب جامعة مولود معمري، تيزي وزو 2007، ص.333.

3- أمبرتو إيكو، السّيميائيّة وفلسفة اللّغة، ترجمة: سعيد بنكراد، المركز الثّقافي العربي، ط1 الرّباط 2000، ص.235.

4- م. ن، ص.ص.14-15.

5- يُنظر: فرنسوا را ستي، المعنى بين الذّاتية والموضوعيّة، ترجمة: سعيد بن كراد.
saidbengrad.free.fr/tra/ar/page7-10.htm

6- يُنظر: محمد الماكري، الشكّل والخطاب، (مدخل لتحليل ظاهراتي)، المركز الثّقافي العربي ط1، الرّباط1991، ص.45.

7- م. ن، ص.44.

8- يُنظر: جيراردولودال وجويل ريطوري، السّيميائيّات أو نظرية العلامات (مدخل إلى سيميوطيقا شال س.بيرس)، ترجمة وتقديم: عبد الرحمان بوعلي، مطبعة النجاح الجديدة، ط1 الدّار البيضاء2000، ص21. حيث يشير الحرف (o) إلى (objet أي موضوع)، والحرف(I) إلى (interprétant أي مؤوّل)، والحرف(R) إلى (representament أي ممثّل).

9- سعيد بنكراد، المؤوّل والعلامة والتّأويل، مقالة في مجلة علامات، عدد9، 1998.
http://www.saidbengrad.com/al/n9/12.htm.

10- يُنظر: أمبرتو إيكو، القارئ في الحكاية (التّعاضد التّأويلي في النّصوص الحكائيّة)، ترجمة: أنطوان أبو زيد، المركز الثقافي العربي، ط1، الدار البضاء 1996، ص.34.

11- م. ن، ص.35.

12- يُنظر: أمبرتو إيكو، العلامة (تحليل المفهوم وتاريخه)، ترجمة: سعيد بنكراد، المركز الثّقافي العربي، ط1، الدّار البيضاء2007، ص.215.

13- يُنظر: جيراردولودال وجويل ريطوري، السّيميائيّات أو نظرية العلامات(مدخل إلى سيميوطيقا شال س.بيرس)، ص.68.

14- سعيد بنكراد، المؤوّل والعلامة والتّأويل:
http://www.saidbengrad.com/al/n9/12.htm

15- م. ن.

16- أمبرتو إيكو، القارئ في الحكاية (التعاضد التّأويلي في النّصوص الحكائيّة)، ص. 51.

17- أمبرتو إيكو، السّيميائيّة وفلسفة اللّغة، ص.185.

18- محفوظ عبد اللطيف، آليات إنتاج النّص الرّوائي (نحو تصوّر سيميائي)، منشورات الاختلاف، ط1، الجزائر2008، ص.85.

19- يُنظر: جيراردولودال وجويل ريطوري، السّيميائيّات أو نظرية العلامات (مدخل إلى سيميوطيقا شال س.بيرس)، ص.96.

20- م. ن، ص.85.

21- يُنظر: م. ن، ص.19.

22- يُنظر: سعيد بنكراد، المؤوّل والعلامة والتأويل.

23- يُنظر: أمبرتو إيكو، التّأويل بين السّيميائيّات والتّفكيكيّة، ص.132.

24- يُنظر: م. ن، ص.ص.140-141.

25- أمبرتو إيكو، السّيميائيّة وفلسفة اللّغة، ص.108.

26- جيراردولودال وجويل ريطوري، السّيميائيّات أو نظرية العلامات (مدخل إلى سيميوطيقا شال س.بيرس)، ص.18.

27- يُنظر: سعيد بنكراد، المؤول والعلامة والتأويل.

28- أمبرتو إيكو، التّأويل بين السّيميائيّات والتّفكيكيّة، ص.139.

29- محمود عبد اللطيف، آليات إنتاج النّص الرّوائي (نحو تصوّر سيميائي)، ص.102.

30- يُنظر: م. ن، ص.ص.139-140.

31- محمد الماكري، الشّكل والخطاب (مدخل لتحليل ظاهراتي)، ص.55.

32- م. ن، ص. ن.

33- يُنظر: جيراردولودال وجويل ريطوري، السّيميائيّات أو نظرية العلامات (مدخل إلى سيميوطيقا شال س.بيرس)، ص.98.

34- سعيد بنكراد، المؤوّل والعلامة والتّأويل.

35- أمبرتو إيكو، التّأويل بين السّيميائيّات والتّفكيكيّة، ص. 140.

36- سعيد بنكراد، المؤوّل والعلامة والتّأويل.

37- يُنظر: جيراردولودال وجويل ريطوري، السّيميائيّات أو نظرية العلامات (مدخل إلى سيميوطيقا شال س.بيرس)، ص.98.

38- يُنظر: أمبرتو إيكو، العلامة (تحليل المفهوم وتاريخه)، ص.272.

39- سعيد بنكراد، المؤوّل والعلامة والتّأويل.

40- محمد الماكري، الشّكل والخطاب (مدخل لتحليل ظاهراتي)، ص.56.

41- يُنظر: محفوظ عبد اللّطيف، آلية إنتاج النّص الرّوائي (نحو تصوّر سيميائي)، ص.106.

42- يُنظر: جيراردولودال وجويل ريطوري، السّيميائيّات أو نظرية العلامات (مدخل إلى سيميوطيقا شال س.بيرس)، ص.20.

43- م. ن، ص.41.

44- سعيد بنكراد، المؤوّل والعلامة والتّأويل.

45- أمبرتو إيكو، التّأويل بين السّيميائيّات والتّفكيكيّة، ص.120.

46- يُنظر: سعيد الحنصالي، الاستعارات والشّعر العربي الحديث، دار توبقال للنشر، ط1 المغرب 2005، ص.104.

47- محمد سالم سعد الله، مملكة النّص (التّحليل السّيميائي للنقد البلاغي، الجرجاني نموذجا) عالم الكتب الحديث للنشر والتّوزيع، ط1، عمّان 2007، ص.58.

48- أحلام مستغانمي، ذاكرة الجسد، دار الآداب للنشر والتوزيع، ط23، بيروت 2008 ص.22.

**- يناسب الوجود الأوّل عند بورس مرتبة الأوّلانية (Primeité)، والوجود الثّاني يوافق مرتبة الثّانيانية (Secondeité)، والوجود الثّالث يناسب مرتبة الثّالثانية. يُنظر: محمد الماكري الشّكل والخطاب (مَدخل لتحليل ظاهراتي)، ص.43.

49- جيراردولودال وجويل ريطوري، السّيميائيّات أو نظرية العلامات (سيميوطيقا شال س.بيرس)، ص.17.

50- م. ن، ص.78.

51- محمد الماكري، الشّكل والخطاب (مدخل لتحليل ظاهراتي)، ص.48.

52- يُنظر: أمبرتو إيكو، العلامة (تحلبل المفهوم وتاريخه)، ص.ص.99-100.

53- م. ن، ص.96.

***- نلاحظ ذلك في بطاقة التّعريف وجواز السّفر، وغيرهما من الأوراق الثبوتيّة التي تحمل صورة فوتوغرافيّة تنوب عن الشّخص وتغني عن حضوره.

54- أمبرتو إيكو، العلامة (تحلبل المفهوم وتاريخه)، ص.245.

****- مثل الخريطة، والرّسم البياني الخاص بالتّخطيط الهندسي.

55- أمبرتو إيكو، العلامة (تحلبل المفهوم وتاريخه)، ص.ص.99-100.

56- يُنظر: محفوظ عبد اللطيف، آليات إنتاج النّص الرّوائي (نحو تصوّر سيميائي)، ص.87

57- يُنظر: محمد الماكري، الشّكل والخطاب (مدخل لتحليل ظاهراتي)، ص.51.

58- أمبرتو إيكو، العلامة (تحليل المفهوم وتاريخه)، ص.91.

59- يُنظر: بول ريكو، نظرية التّأويل (الخطاب وفائض المعنى)، ترجمة: سعيد الغانمي، ط1 المركز الثّقافي العربي الرّباط2003، ص.ص.94-95.

60- يُنظر: م. ن، ص..96

61- يُنظر: م. ن، ص.ص.96-109.

62- م. ن، ص.108.

63- م. ن، ص.ص.102-103.